نقدات (٣)

وحدة الأديان عند الصوفية[١]

نقد الدكتور لابن تيمية:

نهض الإمام ابن تيمية رضي الله عنه ليدفع عن الدين غائلة الصوفية وسواها، وكان مما وجه إليه سهام نقده القاتل أسطورة وحدة الأديان، فهاجمها هجوم المؤمن القوي والمفكر الرشيد اللماع الفكر، هاجمها متسلحًا بالنقل والعقل حتىٰ صرعها وصرع القائلين بها، وتلك خصيصة من خصائص الإمام ابن تيمية أنه ينقض الفكرة بالفكرة، ويذود عن قضايا العقل السليمة بالعقل والنقل، ويحامي عن الدين بالدين والفكر، فهو لا يبطل أسطورة من الفلسفة أو التصوف إلا إذا برهن علىٰ بطلانها من ناحية النقل والعقل، وهو يكاد يكون نسيج وحده في هذه الناحية العظيمة، ولسنا الآن بصدد عرض نقد ابن تيمية، فهو مبسوط بوضوح في كثير من كتبه، والدكتور الفاضل يلخص نقد ابن تيمية، فيقول[٢]: (أورد ابن تيمية بيتًا ينسب عبارته إلىٰ ابن عربي الذي يقرر فيه وحدة العقائد والتسوية بينها فيقول:

عقـد الخلائـق في الإلـه عقائـدًا وأنـا اعتقـدت جميـع مـا اعتقـدوه

ونظر ابن تيمية في هذا البيت، وحاول أن يجرحه من الناحية المنطقية، فرأىٰ أن فيه تناقضًا، لأن الجمع بين النقيضين في الاعتقاد في غاية الفساد، ولأن

---

(١) (٩/ ١٣٧٠).

(٢) ص(٣٠٠) من كتاب ابن الفارض والحب الإلهي.

القضيتين المتناقضتين في السلب والإيجاب علىٰ وجه يلزم من صدق إحداهما كذب الأخرىٰ لا يمكن الجمع بينهما[١]، والصوفية يزعمون أنه يثبت عندهم في الكشف ما يناقض صريح العقل، ويقولون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين ومن سلك طريقهم يخالف المعقول والمنقول، ولا ريب عند ابن تيمية في أن هذا من أفسد ما ذهب إليه أهل السفسطة، وقد زاد ابن تيمية الأمر تفصيلًا وإيضاحًا، فعرض لمذهب ابن عربي في الاعتقاد بكل ما وردت به الأديان المختلفة، فإذا هو يقرر أن القائلين بهذا القول مشركون لأنهم عدلوا بالله كل مخلوق، وجوزوا أن يعبد كل شيء، ومع أنهم يعبدون كل شيء فإنهم يقولون: (ما عبدنا إلا الله)، وهذا في نظر ابن تيمية مخالف لدين المرسلين، ولدين أهل الكتاب، وللملل جميعًا، بل ولدين المشركين أيضًا؛ ويستدل ابن تيمية علىٰ ذلك كله بأن الرسل كانوا يعتبرون ما عبده المشركون شيئًا غير الله وينظرون إلىٰ عابده علىٰ أنه عابد لغير الله، مشرك به، عادل به، جاعل له ندًّا، كما يستدل بأن الرسل دعوا الخلق إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره)[٢].

هذا تلخيص الدكتور لنقد ابن تيمية لوحدة الأديان عند الصوفية، وهو نقد

---

(١) انظر دقة ابن تيمية في إيراد الحجج المنطقية الصادقة، وليتأمل علماؤنا الذين يحقدون علىٰ ابن تيمية.

(٢) إذن ذكر ابن تيمية أن دين الرسل جميعًا هو الإسلام العام فهو إذا قد نظر إلىٰ الدين أنه واحد في أصله وهذا الذي ذكره الدكتور يرد علىٰ الدكتور زعمه فيما بعد.

محكم من ناحية العقل والنقل، ولكن الدكتور يعلق علىٰ هذا بقوله[١]: (ولكن نقد ابن تيمية علىٰ ما فيه من منطق سليم وحجة معقولة في حدود وجهة نظره التي نظر منها إلىٰ المسألة، وهي أنه نظر إلىٰ الشرائع باعتبارها مختلفة في الواقع، لا إلىٰ أصلها باعتباره واحدًا يمكن دحضه وإظهار ما فيه من أوجه الخطإ إذا لاحظنا أن في القرآن كثيرًا من الآيات الكريمة التي حفلت بالمعاني الدالة علىٰ أن الدين في أصله واحد وفي فروعه متعدد)!!

واهًا لدكتورنا الفاضل، إنه صوب إلىٰ غير مرمىٰ، وحارب في غير حرب، وجادل وهمًا فهو يحاول أن يدحض رأي الإمام ابن تيمية عن طريقين:

أولًا: ملاحظته أن ابن تيمية نظر إلىٰ الشرائع باعتبارها مختلفة في الواقع لا إلىٰ أصلها باعتبارها واحدًا.

وثانيًا: يسوق آيات من القرآن خيل إليه أنها تؤيد وجهة نظر ابن الفارض في وحدة الأديان.

وسنناقش الوجهة الأولىٰ من نقد الدكتور لابن تيمية.

فأقول: إن كنت تعني يا دكتور بالأديان لفظًا عامًّا مطلقًا يتناول كل دين سواء أكان دينًا من السماء أم دينًا وَضَعَتْهُ أهواء البشر وشهواتهم، فأقول: نعم هاجم ابن تيمية الأسطورة من هذه الناحية وجلىٰ جلاءً واضحًا تناقض الأديان علىٰ إطلاقها وعمومها تناقضًا بينًا في الأصول والفروع[٢]، فما يسوي عاقل بين

---

(١) (ص٣٠١) من كتاب ابن الفارض والحب الإلهي.

(٢) أعني يوجد تناقض بين الأديان السماوية وبين الأديان الوضعية، ويوجد تناقض بين =

دين سماوي وضعه العليم الحكيم الخبير، وبين دين وضعي وضعته زندقات البشر ووثنياتهم، ما يسوي عاقل بين دين يقوم علىٰ أساسين: عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادة الله بما شرع. وبين دين يقوم علىٰ تأليه الحجر أو العجل و علىٰ عبادة ذلك الإله بما يشرعه عباد ذلك الحجر أو العجل، ولن تستطيع يا دكتور مطلقًا، المعارضة في وضوح التناقض البين والتخالف الذريع بين هذين في الأصول والفروع.

وإن كنت تعني يا دكتور بالأديان لفظًا مخصصًا لا يقصد به إلا كل دين سماوي صحيح جاء به الوحي من الله رب العالمين فأقول إن ابن تيمية طالما صرح في كتبه يا دكتور بغير ما أسندته إليه، وهو أنه نظر إلىٰ الشرائع باعتبارها مختلفة في الواقع لا إلىٰ أصلها باعتبارها واحدًا؛ إن ابن تيمية يفهم جيدًا أن الدين واحد وأنه كله لله، وأن لا تخالف مطلقًا إلا في الفروع أما الأصول فواحدة في كل دين سماوي وهي الإيمان بالله الواحد المعبود وحده وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعدم التفرق في الدين والإخلاص في النية، والعمل عن بينة بما شرعه الله وحده علىٰ لسان رسله ومما بينه في كتبه.

وإليك نصًا واحدًا يبين لك فهم ابن تيمية فهمًا جيدًا لهذه المسألة:

(كان[1] الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين قال نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وقال في حق إبراهيم:

=

بعض الأديان الوضعية وبين بعضها الآخر.

(١) ص(٧٧-٧٨) من كتاب العبودية لابن تيمية ط مطبعة السنة المحمدية ١٩٤٧.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٢]، وقال عن يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال عن موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٣-٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال عن بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] انتهىٰ كلام ابن تيمية بنصه.

أفرأيت يا دكتور أن ابن تيمية يفهم جيدًا أن الدين كله لله منذ بدء الخليقة واحد، وأن الأنبياء جميعهم مبعوثون بدين الإسلام، أما وقد وضح هذا جيدًا فيسقط الوجه الأول من نقد الدكتور، والوحدة التي ينقدها ابن تيمية يا دكتور هي وحدة الصوفية القائمة علىٰ أساس أن الأديان كلها علىٰ إطلاقها واحد، سواء منها الدين السماوي القائم علىٰ التوحيد، أم الدين الوضعي القائم علىٰ الشرك والوثنية هذه هي الوحدة التي ينقدها الإمام، أما الوحدة بالمعنىٰ الصحيح كما بينها القرآن فها أنت ترىٰ في النص الذي سقناه أن ابن تيمية يقرها ويجليها، وشتان شتان بين هذه الوحدة وبين الوحدة عند الصوفية، فابن الفارض يعترف

بالمجوسية دينًا صحيحًا، ويقر عبادة العجل والصنم وغيرهما من المخلوقات ويعتبرها عبادة لله رب العالمين، وإلىٰ هذا يتوجه نقد ابن تيمية أفتستطيع أن تبطل إذن نقد ابن تيمية الذي بينا لك إلىٰ أين يتجه؟!

أما أن تنقل نقده إلىٰ معنىٰ لا يقصد نقده بل يقره هو، وهو أن دين الله الذي بعث به كل رسله واحد فهذا ليس من سمة الباحث الذي ينشد الحق والحقيقة يا دكتور. أما الآيات التي حاول الدكتور الاستشهاد بها ليبرهن علىٰ صحة نظر ابن الفارض فنقول الآن إنها بالذات تدمغ ابن الفارض بالوثنية الجاحدة وموعدنا بمشيئة الله مناقشته فيما فهمه منها في العدد المقبل.